

فيصل دراج و رهان الممارسة السوسيولوجية

أ. زينب رحايمية

جامعة باجي مختار - عنابة-

الملخص :

تروم هذه الدراسة الوقوف على نموذج المقاربة السوسيولوجية للرواية العربية، ونموذجها الفلسطيني "فيصل دراج" الذي حاول استنطاق الرواية العربية وما يموج به عالمها وسياقاتها من خصائص ومميزات. وقد كان رهانه هو البعد الاجتماعي والواقعي. مستعينا في ذلك بمرجعيات غربية تعود في عمومها إلى الفكر الماركسي وخاصة طروحات كل من: جورج لوكتاش ولوسيان غولدمان وميخائيل باختين .

إذ ترددت في نظرياتهم مقولات : الحرية ، التعدد ، الحوارية والجو المدني والبورجوازيات الثائرة ... وكلها مفاهيم تعكس في حضورها الفضاء الطبيعي الملائم للرواية . هذا الجنس الذي رآه الناقد غريبا بامتياز، ما جعله يرى في الرواية العربية عموما جنسا غريبا معوقا متخلفا في فضاء طارد سلطوي أحادي، لا يمكن أن يُشجّع الإبداع ولا أن يُزكى الكتابة الروائية وأنساقها .

Abstract:

The study at hand aims at identifying the model of the sociological approach to the Arabic novel, and its Palestinian sample, "Faisal Darraj," who attempted to interrogate the Arab novel and its characteristics and contexts betting on a social and realistic dimension and using Western references that were generally based on Marxist thought, especially those of Georg Lukacs, Lucien Goldmann and Mikhail Bakhtin.

As their theories echoed the expressions of freedom, pluralism, dialogue, urban atmosphere and rebellious bourgeoisie ... all of which reflect in their

presence the natural space adequate to the novel. This gender, that the critic saw in the West par excellence, made him see in the Arab novel in general a strange alien, disabled and lagging behind in a single and authoritarian space that cannot encourage creativity or recommend narrative writing and its patterns.

مقدمة :

يعدّ مشروع "فيصل دراج" النقدي من المشاريع الهامة التي تطرح كثيرا من التساؤلات حول الرواية، هذا الجنس الذي ترعّ على الساحة الإبداعية. فقد ابتعدت بنا دراسته عن مألوف الدراسات التعاقبية التاريخية التي راهنت عليها جلّ الدراسات العربية التي خاضت هذا الميدان، إذ اهتمت بالرواد و الأعلام و سؤال الأسبقية لمن؟ و الأصول و غيرها من الأسئلة المكررة التي ملأت الساحة النقدية إجابات مكرورة.

قارب الناقد الإبداع الروائي العربي من وجهة نظر سوسولوجية، بحث انطلاقا منها تجليات الواقعي وتأثير الاجتماعي مسترفدا لمفاهيم وطروحات غربية تعود تحديدا إلى: جورج لوكاتش (G. Lukacs) ولوسيان غولدمان (L. Goldman) وميخائيل باختين (M. Bakhtine). فكيف نظر فيصل دراج للرواية العربية عموما وما هي رؤيته للخطاب السردى العربى النهضوي خاصة؟ إلى أي مدى نجح الناقد في تطبيق الممارسة السوسولوجية التي تروم قراءة الإبداعات الأدبية في فضائها؟ وإلى أي مدى نجح - ومن مرجعيات غربية مستعارة - في تقديم قراءة صائبة للرواية العربية والإنصات لهمومها وتطلّعاتها وفضاءاتها المختلفة عمّا يهّجس به الآخر وتموج به سياقاته؟ إشكالات نحاول الإجابة عنها في هذه الدراسة من خلال العناوين التالية :

1- الظاهرة الروائية والمجتمع المدني :

يربط كثير من الدارسين الرواية بالمدينة و يعتبرون الرواية هي ابنة المدينة، إذ هما وجهان لعملة واحدة، تجمعهما نفس الخصائص، ولعلّ هذا ما نجده في الطروحات اللوكاتشية والباختينية وغيرها. فإذا كانت المدينة تتيح الانفتاح الحرّ على المتعدّد والمختلف، على كافة الأطياف والرؤى والانتماءات، وهي عالم يطفح باللامتوقع واللامحدود، فهذا الفضاء نفسه

هو الذي تهجس به الرواية، حتى أمكننا -من زاوية نظر فيصل دراج- أن نقول: أن لا رواية دون مدينة ولا مدينة دون رواية.

إن المدينة- كما الرواية- هي مجال يُتخلّص فيه من الرتبة و التكرار، هي خروج من الغيبي إلى الواقعي، انفلات من المتجانس إلى اللامتجانس، هروب من الأحادي إلى اللانهائي و تملّص من الجماعي إلى التميّز و الفردي. " يقبل المفرد بالحوار، لأنه يعترف بالجزئي و النسبي و الأجزاء على خلاف الجماعة المهمة التي تعتنق المطلقات، و المطلق وهو كامل و مكتمل، يريح العقل ولا يحتاج إلى تفسير، و ما حديث المطلق و النسبي إلّا حديث التقليد و الحداثة، الذي ينتهي إلى تاريخ أُعطي مرة واحدة و ما هو بالتاريخ، و تاريخ آخر لا نهاية له " ⁽¹⁾.

يربط الناقد الرواية بالمدن الحديثة الغربية، حيث يتجلى الإنسان بأبعاد كثيرة و يرتبط بفضاءات متنوعة، إذ تتاح له الحرية للتعبير و المشاركة في الحياة الاجتماعية و السياسية و مختلف الأنشطة الثقافية، بل إن لديه نزوعا دائما نحو الخلطة و التمرد على النظام. خلافا للريف الذي يكون فيه المجال الحركي محدودا، كذلك الوظائف و الأنشطة التي يقوم بها الفرد متشابهة.

في حياة الريف ما يبعث و يرسّخ شعورا حادا بالروتين و الضجر، بالثبات الناتج عن الرّابط الجماعي و الوحدة الفكرية و الذهنية الخضوعية الإتباعية، التي تؤند محاولات الاختلاف أو التفرد و ترفض كلّ نظرة تغييرية، تحاول إنشاء مرجعيات جديدة أو تتحرك خارج مجال الحظر الفكري و الثقافي " ينوس السؤال بين ذات معطاة، يساوي زمانها مكانها، و ذات متكوّنة، مرجعها داخلها و ترتضي من المراجع الخارجية بما يوافق إرادتها" ⁽²⁾.

لا يعترف الناقد "فيصل دراج" بوجود مدن عربية، فكلّ ما هناك مجرد أرياف أو قرى لا تُلهم بقدر ما تقتل، و لا تحرّض بقدر ما تنفي، لا يوجد مفهوم للفضاء المديني- في نظره- بخصائصه المذكورة و لذا ظلّت الرواية العربية معوّقة في البلاد العربية، فنحن لا نملك المدينة الحقيقية التي تستمد منها الرواية خصائصها الأساسية. لقد أخفقت المدينة العربية في إحضان وخلق الرواية أو الإعلان عنها لحظة حدائية. طبعاً المدينة كمفهوم تاريخي-في نظر فيصل دراج- ينقض

الركود و يقبل التنوع البشري و الفكري الكثيف. المدينة كمجتمع حركي دينامي و بؤرة ثقافية ترفض الثبات و المعايير المغلقة.

فكلّ ما هناك في الوطن العربي مدن بالمفهوم الديموغرافي أو كتل بشرية تزداد كثافة فقط، وبالتالي حتى لو سلّمنا بوجود مدن سنجدّها تأخذ حتماً في نظر الناقد- خصائص الريف حيث تسود العلاقات التقليدية، فبدل أن تتمدّن المدن العربية ربما، نجدّها تزيّفت، و بدل أن تكون الأقطار العربية منبعاً خصباً للإنتاج الإبداعي والخلق، باتت فضاءات للطرد والنفي و بدل أن تنبّي تلك الكتل الصمّاء و التجمّعات لرؤى جديدة قوامها الجمال في التنوع، فتؤسّس للمدينة بمفهومها الحقيقي وبمؤسساتها وهياكلها الفكرية و المدنية، سواء الرسمية أو غير الرسمية من دساتير وصحف و نواد و دور نشر و مبادلات ثقافية ... ها هي " المدينة التي تنقّب عنها الرواية العربية غائبة في معظم الأحيان أو غائبة وحاضرة في آن، غائبة في جمالية الجموع و حاضرة في نسق معماري لا أمس له. فالمدينة العربية، لم تحقّق ذاتها كوحدة مستقلة مرجعها في ذاتها ومؤسساتها مستقلة و متناجزة، ذلك أنّها فضاء أعزل تشكّله السلطة، إن كان واهن الشكل و تختلس السلطة شكله إن كان قد ظفر بشكل قديم ... ولهذا تبدو المدينة العربية كما لو كانت مدينة لا تاريخ لها، لا تراكم ما عرفته و لا تنتج تراكماً ممن وفد إليها، بل تغوص في تراكم كمي عقيم ... »⁽³⁾.

لا يمكن للمدينة العربية التي بقيت موقعا هامشياً، و التي غالباً ما تكون جملة قري، أن تصدر عنها الرواية، فهذه الأخيرة لا يمكن أن تقبل بالمعطيات القروية، إذ " المدينة العربية ما عدا إستثناءات قليلة، لم تظفر بوضعها التاريخي ككيان مستقل بذاته، ينتج و يعيد إنتاج صحفه، مجلّاته و دور نشره و مطاعمه و مسارحه و نواديه و مؤسساته الثقافية المتعدّدة، أي كلّ ما تخفق فيه رياح الحداثة، و يخلق الرواية ك لحظة حدائية " ⁽⁴⁾.

تُفضي الملاحظات السابقة إلى نتيجة أكّد عليها الناقد، تضاف إلى جملة آرائه، التي تقول أن لا وجود للرواية العربية بسبب العقم المعرفي و الحضاري الذي تتحرك فيه، و تأخرها عن تحقيق وضعها التاريخي، إذا ظلّت المجتمعات العربية تعبيراً عن أحداث إجتماعية مشوّهة

كثيرة. يضيف إليها الناقد حديث المدينة الذي يجب أن ينطوي على المتعدد قراءةً وكتابةً و تخيلاً، المختلف عن أحاديث القرى الضيقة.

حيث كتاب القرية المقروء قبل قراءته " يبدو كتاب المدينة كتاباً لم يُكتب بعد أو كتاباً لا يُكتب إلا لتُعاد كتابته من جديد. وفي مقابل القرية التي ترمي على من يفد إليها بصفة الغريب: تظهر المدينة مخزناً للغرباء و حاضنة لجمهرة بشرية غريبة تقايض الغربة بتحرّر محتمل و تنفي العزلة بتصورات غير منعزلة"⁽⁵⁾. في القرية التي يعدّها الناقد معادلاً للمدينة العربية كلّ يرى نفسه في الآخر الذي بات صورة مطابقة للأنّاء، الكلّ يعرف ما يفكر فيه الكلّ، والكلّ يتوقّع حتى ما سيقال، الجميع تحكمه علاقات الرضا والإرتياح الناتج عن التماثل و التطابق و التناسخ.

إن خصائص المدينة العربية الغائبة في أحادية السلطة، المهمّشة في عدم إستقلاليتها المؤسّساتية، الحزبية والدستورية و حتى الفكرية، المغيبة كنسق جماليّ جماعي إختلافي، لا يمكن أن تحمل تصوّرات الرواية سليفة المدينة الغربية الباختينية منتجة الإنسان الإشكالي و الناس المجهولين وجموع الغرباء.

يصرّ الناقد على رسم نماذج غربية، و هذه المرة للمدينة، رغم تأكّيده على ضرورة خلق خصوصية عربية، و على التحرّر الثقافي و بناء هوية قادرة على المجابهة الكولونيالية و التغريبية، ويتأتّى ذلك بإنتاج الأدب الفاعل في الثورة الإجتماعية ينبغي أن يبتعد عن كلّ نموذج مسبق لأنّ عليه أن ينتج نموذجاً الخاص أو نماذجاً الخاصة، المرتبطة بشرط إجتماعي ثقافي معيّن. فلماذا يقرن "فيصل دراج" المدينة العربية التي لم تخرج بعد من صدمات استعمارية تاريخية بأخرى غربية بلغت ذروة التقدّم؟ ندرك أن جوّ التعدّد والإختلاف ضروري ليس فقط للرواية، بل للحياة أيضاً، لأن الثبات و التماثل معادل للموت، لكن قد تكون هناك أسباباً أخرى مسؤولة عن الظهور و التطور الروائي.

لا ينبغي أن يُنظر للتاريخ الأدبي و المراحل الحضارية الغربية، كمراحل و تواريخ كونية وكنماذج و قوالب جاهزة يسهل صهّجها. فمادام النضج و التصنيع و الرأسمالية و التطوّر الغربي كان نتيجة مخاض طويل و عسير، فلماذا نطالب التاريخ العربي و واقعه بأن يقطع نفس

الأشواط، بل أن يصل مباشرة إلى آخر المراحل التي وصلها الغرب. نفس الشيء ربما بالنسبة للمدينة العربية، التي لا ينبغي أن يُنظر إليها فقط، كمجتمعات سكانية متنوعة ومدن صناعية ضخمة بمؤسسات مختلفة أو كمدينة لبست ثوب الحضارة، فهذا مهم، ولكن ينبغي أن لا ننسى روحها العربية أي المدينة كهوية.

وهذا يجزئنا للحديث عن المدينة العربية التي يغلب عليها خصائص الريف، كما يذهب إلى ذلك الناقد، فهذا رأي إلى حد ما صحيح " في المدينة العربية أحياء تدلّ مختلف مؤشراتنا على أنها ريف، أكثر مما هي حضر، فالوحدات السكانية ريفية الطابع وحيوانات تشارك السكان فراغهم المحدود وسكان يرتدون الملابس الريفية ويقضون وقتا كبيرا مع بعضهم يتسامرون ويتعاونون ويتقاسمون ما يتوفّر لديهم من معدّات و من مواد، وكثيرا ما ينتمي الجيران إلى نفس العائلة أو القبيلة" (6).

فنحن نرى أن هذا التداخل بين الريف والحضري ربما يكون من أهم خصائص المدينة العربية، بل لا بد في نظرنا أن تترتّب المدينة. لا نقصد الريف كفضاء جغرافي أو إثنوغرافي، بقدر ما نرمز هنا إلى الإلتقاء العربي وصوره الرائعة التي قدّمها عن التكافل والتآزر الإجتماعي. فهذه الصورة الإنسانية جعلت كثيرا من الدعوات من الغرب أنفسهم، تندّد و تجهر ذلك العالم الرأسمالي وتلك المدينة التي تخلو من العلاقات الشخصية الإنسانية فهي علاقات " باردة تفتقر إلى دفء العلاقات الحميمة التي تسود بين أفراد مجتمع يشتركون في الجذور القرابية، علاقات تنظّمها لوائح وقوانين و تتولّى مراقبتها أجهزة رسمية إدارية و أمنية و قضائية" (7). جميل أن نأخذ قيم المدينة الغربية، كروح التنافس و المبادرة و الطابع المؤسساتي و التنظيمي، ولكن مع المحافظة على مقوّمات هوية المدينة العربية.

وإذا كان "فيصل دراج" يربط المجتمع المدني أساسا بالتطور الغربي، فإن كثيرا من الدراسات تؤكد أن ظاهرة المجتمع المدني نسبية وهي " ليست حكرا على الغرب الرأسمالي مثل غيرها من الظواهر و المفاهيم الإنسانية الأخرى، فهذه الظاهرة عرفت خبرات مجتمعات و دول عديدة، لكن الفارق يكمن في درجة نضج المجتمع المدني وتبلوره في الحالتين" (8).

إن للعرب حظهم من التمدّن، فلماذا يحتفظ الناقد بالصورة النمطية عن العربي المنوط بالصحراء و البداوة و الترحال وهذا فهم غربي إلى حدّ ما " مع أن العرب فريقان: الفريق المرتحل و الفريق المتحضّر، الذي يسكن المدن كمكة و المدينة ... أمّا الفريق الأول فلا شأن له بالأدب أو الفن أو العلم، لأنّه يكافح في سبيل عيشه و الإبقاء على حياته، أما الفريق الآخر الذي عرف الهدوء و الإستقرار، فقد عرف أيضا التأمّل و التفكير و التّرف و الحياة الوداعة"⁽⁹⁾.

ونحن نعلم جيّدًا بشهادة التاريخ، أن المدينة من بين أهمّ إسهامات العرب في الحضارة العالمية قديمًا، فهذه بابل و أورشليم و مدن مصر و بغداد و الكوفة... " فعندما بنى العرب مدنا و مراكز حضرية كبيرة، كان سكان أوروبا عبارة عن قبائل رحّل مستقرين في قرى زراعية"⁽¹⁰⁾.

لقد عرفت الثقافة العربية مراكز التحضّر و مظاهر الاستقرار الحضري، بل ربما فاقت المدينة العربية إبان حضورها الذهبي النموذج الغربي للتمدن، من ناحية نزعتها الإنسانية، الاختلاف الفكري و الثقافي، و حتى العرقي و الديني، قيم التسامح الاحترام و التنافس و الصراع السلمي. كما يشهد التاريخ أن المجتمع الإسلامي قدّم أروع صور التعاقد الإجتماعي الذي يضمن لهذا المتعدّد ما يسمى " بحقوق المواطنة "، و عرف عديد الكيانات و المؤسسات التي اضطلعت حتى بوظائف منفصلة عن وظيفة الدولة " من جماعات العلماء و القضاة و المفتين إلى نقابات الحرف و الصنائع إلى شيوخ القبائل والعشائر و شيوخ الطرق الصوفية و رؤساء الطوائف إلى جانب ذلك، فقد كان المسجد مركزا للإشعاع الثقافي، و كان الوقف مؤسسة كبرى مستقلة أقامها الناس بعطائهم... "⁽¹¹⁾.

نصوغ هذه الإستشهادات، حتى نبيّن خصائص النمط المدني العربي، الذي يبدو و أنه يختلف إلى حدّ ما عن صورة النمط الغربي، الذي جعله الناقد "دراج" نموذجًا عالميًا، كلّ من خرّقه أو حاد عنه يدخل في طور التخلّف و الأريفة.

لقد عرف التاريخ العربي المدن الكبيرة، المدن الحقيقية التي أكّد عليها الناقد، كفضاء للتحرّر و مركز لتنظيمات المجتمع المدني و السياسي: كالأحزاب و النقابات و الدساتير و منظمات حقوق الإنسان ... و مع ذلك لم تظهر الرواية؟!.

وحديثاً وُجِدَت المدن العربية الكبيرة، وأن هذه "المدن أصبحت تضمّ اليوم سكاناً من مختلف الخلفيات الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية وتنتشر بها الأحياء المتجانسة، حيث تسيطر فئة معينة، كما تضمّ أحياء على درجة عالية من التنوع و عدم التجانس، كما تتواجد بالمدينة العربية المعاصرة أغلب المناشط والمؤسسات الموجودة في أيّ مدينة عصرية وتظهر في المدينة العربية أيضاً مختلف المشكلات التي تعاني منها بقية المدن من الازدحام وارتفاع معدلات الجريمة وجنوح الأحداث والأحياء الفقيرة وسكان الأكواخ والبطالة والذين يقومون بأعمال هامشية"⁽¹²⁾. نعتقد أن ما في المدينة العربية من التعقيد ما يؤهلها لاحتضان الرواية.

ولو أقررنا بهذه العلاقة التلازمية بين الرواية والمدينة، فنحن نؤكد دائماً على دور المتخيّل، فحتى لو لم ينطلق الروائي من المدينة التي أكدّ عليها الناقد، فيمكنه أن يشيد مدينة ربما تكون أكثر انفتاحاً وحرية من المدينة التي يهجرها "دراج" وللمبدع أن ينطلق من المدينة الحاضرة إلى الأخرى الغائبة أو المغيية، بإمكان الروائي أن يؤسس خيالاً لمدن غريبة باختينية، والتي- في رأيها- طغت فيها نزعات الإغتراب وقطعت فيها الفردانية ورغبات الهيمنة والمادة، كلّ علائقية جماعية تكافلية، على الرغم من أن الناقد يشير إلى إمكانية تعويض إنسان المدينة لإغترابه ودفنه العائلي وانتمائه العضوي" بإنتماء حدثي أكثر انطلافاً ورحابة، قوامه الثقافة والسياسة والحوار الجماعي وانهدام المعايير العضوية الساكنة أمام الفردية الدينامية التي تؤسس لذاتها معايير جديدة"⁽¹³⁾.

إن للمعطى والملاحظة الواقعية دورها، لكن لا يمكن أن نغفل أيضاً دور المخيّلة" إن العمل الفني نشاط مبدع، يقوم به الكاتب، وليس انعكاساً بسيطاً للواقع يمكن أن تقوم به المرأة الميّنة"⁽¹⁴⁾. كما أن للكاتب دوره في الإبداع وفي توجيه الأبصار نحو الجمال، في إخراج الإنسان والوجود من ملله. إذ يمكن للفضاء الريفي الذي ينعيه "فيصل دراج" و يراه لا إبداعياً برتابته و تكرارية أنساقه وأنماطه أن يكون نموذجياً للكتابة، بما يثيره من القلق حيث الهدوء والشك حيث اليقين وعدم الإتياح حيث الرضا والخضوع.

إن للحاجة الجمالية دورها وللرغبة الملّحة لدى المبدع للخرق والتثوير، ولإنقاذ الكون من الإلف والتجاهل والنسيان أثرها أيضاً "كم من الأشياء لم ترها في هذا الشارع الذي تمرّ فيه

عشر مرّات في النهار، و في الغرفة التي تعيش فيها ساعات اليوم. أنظر إلى الزاوية التي يشكّلها حرف هذه الأثاث مع زجاج النافذة. إن عليك أن تستعيدّها من المرئي الذي لم تره عليك أن تنقذها ...»⁽¹⁵⁾.

كما يمكن للروائي أن يؤسّس لمدن الملح أو الماس أو غيرها ... فالأمر مرتبط أحيانا بالفضاء المتخيّل و ليس المكان الواقعي. فقد يكون الريف بناء مدينا عن طريق المتخيّل يفوق روعة و تعدّد المدينة الجغرافية. و كم من المبدعين هربوا إلى الريف بل و إلى الصحراء، و لعلنا نقصد هنا التجربة الرائعة للروائي الليبي "إبراهيم الكوني" الذي رغم عيشه في كبريات المدن الصناعية، إلّا أنه قدّم لنا أروع صور الجمال والرقى الإنساني و تحديدا في رائعته: "نزيف الحجر" و "التبر".

إن الأمر لا يتعلق دائما بالمطابقة مع الواقعي و المرجعي، بل بالإنزياح الكتابي و العلاقات الخاصة داخل العالم الأدبي فكل كتابة، تنهض على مستوى المتخيّل، بمعنى أن الكاتب حين يكتب، لا يتعامل مباشرة مع الواقع، بل مع ما يرتسم في ذهنه، أو في مخيلته، من صور تخصّ هذا الواقع أو تمثله و تعنيه.

كما أن الرواية العربية استطاعت في جوّ مدنها المنغلق المتريّف- كما يصفه دراج- أن تقدّم نماذج راقية و عالمية. ما يثبت أن الرواية الغربية و ما تبعها من شروط و معايير لظهورها و تطوّرها ليست مطلقة، حتى نقيس بها كل شيء.

فلم يجد الناقد تحقّقات هذا المجتمع المدني في العالم العربي لأنّه يوحى في تحقّقه عربيا، عن حالة ارتقاء و تطور و تعدّدية معرفية و ثقافية. و هذه كلها مفاهيم مغيّبة- في نظره- بسبب سلطة تُلغي و تعطلّ المقدرات و العطاءات و لا تعترف بالمواطنة و الإستقلالية المؤسّساتية والإيديولوجية و الفكرية و الحركات و التنظيمات الإجتماعية و السياسية، قرينة المجتمع المدني "عندما تلتهم السلطة المجتمع كلّ، و تضمّه في داخلها فإن مجتمعا كهذا يصبح لا وجود له، بل يتحوّل إلى كمّ ديمغرافي و سكاني لا أكثر ... إن هزيمة المجتمعات العربية أمام أنظمتها هزيمة كاملة، يجعل الحديث عن المجتمع المدني حديثا غير واقعي. لذلك يمكننا الحديث عن ثنائية السادة و الرعية ...»⁽¹⁶⁾.

مجلة علوم اللغة العربية وآدابها

وإختفى ذلك، المجتمع الإقطاعي التراتبي الأحادي الرؤية والمصلحة. فتبدّش البرجوازيات الحديثة باللاطبكية واللاأحادية إذ لا أحد يحتكر الحقيقة ولا جهة تمتلك نواصي البشر ولا طبقة معفاة عن تطبيق القانون، ولا أيديولوجيا التفاوت ولا رؤى إختزالية. الكلّ يبي في علاقات تحاورية إعترافية. فمنحت هذه المقولات البرجوازية الرواية أبعاداً أخرى "أسست مقولات الحوار والإكتشاف والمسائل الحرّة لصعود الجنس الروائي وتطوره، وأتاحت للروائي أن يقرأ أحوال الإنسان في أزمنة مختلفة"⁽¹⁹⁾.

أنتجت تلك البرجوازيات المنتصرة لمقولاتها "المفرد الذي أصله فيه، الحاضر الذي هيأ ذاته مرجعاً للأزمنة المجتمع الحوارية الذي استولدت المساواة، الدولة- القومية التي توحد المجتمع لغة وثقافة، تعددية المعارف المتحورة المتجددة الإحتفاء بالواقع المتحرر وأسئلته الدنيوية، المتخيّل الذي يخاصم المفرد ويحلّق مجتمعا بصيغة الجمع، الشعور بالزمن والتعامل مع العارض والمتغير وسريع الزوال، العقل الطليق الذي فارقه اليقين، الإحتفال بالنسبي والمتعدد والمجزوء اللغات الإجتماعية التي لا مركز لها، القارئ الذي أنتجته المدرسة والمؤسسات و السوق الثقافية ..."⁽²⁰⁾.

هكذا يراهن "فيصل دراج" في مقارنته سؤال نشأة الرواية العربية على تشرب روافد فكرية ونقدية غربية ونقص هذا تحديدا الرافد اللوكاتشي والباختيني، بحواريته التي وسمت الحقل الثقافي والإجتماعي الغربي، وجعلته حقلاً روائياً بإمّياز، لأنه استطاع أن يتخلّص من نموذجية فكرية قارة وأن ينفر من مونولوجية في الحقل الثقافي، تحيى بما هو مكرّس وتستكين لما هو مطابق إجتراري.

إن هذه الخصوصية في السياق الحضاري والمجتمعي الأوروبية- في نظر الناقد- هي التي مكّنت من تخليق الفضاء الروائي ودفعه إلى التطوير، حين اختطّ الوعي الغربي لنفسه مساراً جديداً جعل فيه مجتمعية المعرفة وديالوجية الحقل الثقافي من أولى أولوياته.

فقد ظهر علم التاريخ في القرن التاسع عشر "جعل هذا القرن من التاريخ نهراً متدفقاً، يفتش عن مصبّ ذهبي ووضع الإنسان في قارب ذهبي يسحبه النهر المتدفق رضياً ... ولم تكن جمالية المستقبل وغنائيته بعيدة عن عوالم الكشوفات العلمية وسقوط اللاهوت وانبثاق الشعب

من الرعية و مغامرات الإكتشافات الجغرافية التي تنصبّ الإنسان سيّدا على ذاته و سيّدا على الكون و فرض هذا كله ربما صيغة الإنسان الجديد، الذي جذره في ذاته وذاته أرض لكل جذر محتمل وأكدّ الفردية الإنسانية المكتفية بذاتها مبتدأ للكتابة الروائية و مرجعا لها⁽²¹⁾.

وصاحبت هذا العلم رؤية جديدة للحقائق و الإنسان و الوجود، رؤية بعيدة عن أحاديث الملوك و القادة و سير العظماء و الخارقين، و صاحب ذلك ظهور حقول معرفية أخرى جديدة عند الغرب انبلجت عن وعي آخر بالحياة و الكون. وعي رأى الإنسان و الأحداث بأبعاد مختلفة، ترمي بحكايات العجائب إلى مكاتب ترخّب بالمتعة و الأسطورة " تتعدّد وجوه التاريخ الذي استولد الرواية، و تتوحد لاحقا، في عنصرين أساسيين يمثلان جديدها الحاسم؛ أولهما: الانتقال من سير العظماء الذين يقفون فوق البشر و يحدّدون مراتبهم إلى سير البشر، الذين ينكرون المراتب المقيدة كلّها. و ثانيهما: نقض الواقع القائم بواقع متخيل آخر، إن صحّ القول ذلك أن الرواية لا تكون ما هي إلا إذ إنطوت على واقع محتمل ينفي القائم و لا يعيد إنتاجه و يوحي أن الواقع يوجد في صيغة الجمع و يتشكّل بلا انقطاع من دون أن يلتقي بشكله الأخير أبدا⁽²²⁾.

كان لهذه الرؤية الجديدة للتاريخ و الواقع التي نزعّت هالة التقديس و النورانية و الماضوية لتسبح فيما هو مدّس و مختلف، أي و مستقبلي، دور في الميلاد الروائي الغربي حيث " يُفصح القول الروائي عن عنصرين لا يتكون خارجهما أولهما: تحوّل اجتماعي، تاريخي، يهدم أحادية المراجع في ألوانها المختلفة. و ثانيهما: القدرة على توليد و تطوير المتعدّد في مجالات مختلفة، و في الحالتين يحدث الزمن الروائي عن زمن تاريخي، قُطع من زمن سابق عليه⁽²³⁾.

لقد أبانت متابعتنا لمقاربة الناقد لمسألة السردية العربية الحديثة عن تواجدها مع خلفيات فلسفية و فكرية غربية منوطة بمشروعية تاريخية معيّنة، الأمر الذي يطرح أمامنا إشكالية جوهرية طالما صادفتنا في الحقل النقدي و الإبداعي العربي عموما، وهي مسألة المثاقفة مع الآخر و الأخذ منه. و التي ينبغي أن تكون رافدا مطوّرا لما هو عربي، بحيث لا يكون ذلك التفاعل الثقافي و الحضاري نقمة على الواقع العربي، إذ نكون أمام مسارين مختلفين و معرفتين لهما صيرورتها الخاصة هما: المعرفة النظرية و النقدية الغربية و نظيرتها الأخرى العربية، فنقرأ هذه المعرفة بتلك.

مناقشة و انفتاح يطرح تساؤلات ضرورية لعل أهمها مسألة العولمة الثقافية و الإبداعية، التي لن تحطم الحدود و تتجاوزها كي تحقق التآلف و التميز، وإنما جاءت من أجل الهيمنة و فرض هوية معينة و وضع تصوّر للنقد و للحياة موحداً.

هي مسألة لا نلوم- انطلاقاً منها- الغرب الذي طوّر نظريات و تجارب و معارف، ولدت من رحم سياقاته و أبانت عن همومه و تطلّعاته، و لكننا نلوم أكثر المبدعين و النقاد العرب الذين خضعوا لمقولات الآخر الجاهزة، و ظنّوا أن العلاج في وصفاته المنتهية.

لقد راهن كثير من الباحثين العرب على المحمولات المعرفية و النقدية الغربية في مقاربتهم لما هو عربي، دون وعي في كثير الأحيان، بالمحاضن الفلسفية و الحضارية، فوقعوا في هوة الإغتراب و التبعية.

إن الحديث عن "فيصل دراج" و نظيراته النقدية ينطبق على جلّ الظواهر الإبداعية الفكرية العربية، التي خضعت لإطلاقية الأحكام و النظريات، و جاهزية النتائج التي أسقطوها على الواقع العربي، دون مراعاة لخصوصيته و تفرّده الحضاري. فكانت تلك التصورات و الروافد في كثير من الأحيان، إعادة إنتاج أو تفسير أو تمثّل لأراء الغرب و إتجاهاته "إن الباحث المعرفي وراء هذه المعضلة المنهجية التي تعتور واقع النقد العربي و مستقبله ترتبط بغياب خلفيات فلسفية و معرفية نابعة من طبيعة الواقع العربي و ثقافته و كفيّلة أولاً برّفده بمدخل فكري و منهجية تخصّص و عيه بتاريخية تجاربه الأدبية و الفنية و جديرة ثانياً بتمكينه من التسلّح بحسّ نقدي و ثقافي متّقد و كشّاف لا ينصاع في محاورته مع محمولاته النقدية الغربية وراء جاهزية تصوراتها و مطلقيّة أحكامها، بل يعي مشروطيّتها بمحدّراتها التاريخية و الفلسفية من أجل تنسيبها، و إعادة استزراع مفاهيمها و مقولاتها وفق فارقية الأسئلة و القضايا التي تنشّرها النصوص الروائية العربية..."⁽²⁴⁾.

نشأت الرواية العربية- كما يرى الناقد- في شرط تاريخي غير موائم، عكس الأوروبية التي ولدت في القرن التاسع عشر، حيث سوّيت لها الشروط الملائمة: الثورة العلمية، صعود البرجوازية، المجتمع المؤمن بالحرية و المساواة، ارتياد المجهول و الإيمان بالمستقبل ... و هذا تصوّر لوكاتشي، إذ يربط بين تاريخ الرواية و التاريخ الاجتماعي، فحركة الرواية أثر لصراع

طبقات متناقضة، حيث تصعد الرواية بصعود البرجوازية وتتداعى مع أفولها. في بعض المواضع يُحضر الناقد نظريات و قوالب غربية جاهزة و يحاول اسقاطها على الواقع العربي، غافلاً أو متناسياً أن لكل فضاء خصوصياته .

ندرك خلوّ الموروث و الواقع العربيين من مثل تلك النظريات و الطروحات الغربية، لكن ما مدى نجاح النقاد العرب في تمثّل مفاهيم و إجراءات مغايرة السياقات و الرهانات و التحديات؟ إلى أيّ مدى يظلّ الغرب هو النموذج الأوحّد للمقايضة؟ ما مدى صحة وصلابة الرأي الذي يجعل من السياق الثقافي و التاريخي الأوروبي هو المجال الوحيد لنشأة النظريات والأجناس الأدبية عند كلّ أمة؟

من هذا المنظور ننوّه هنا بأمر نراه ضرورياً، ذلك أن التنوع في الأفق التنظيري الروائي الغربي قد يكون له دلالة تساعدنا في الإبانة على عديد الإشكالات المطروحة. فقد تنوّعت التنظيرات الروائية عند الغرب و تعدّدت منطلقاتها الإيستمولوجية: من باختين إلى جورج لوكاتش إلى غولدمان إلى مارت روبير....، ولعلّ في تباينها و حركية مفاهيمها و رؤيتها، ما يوحي بأنه لا يوجد تحديد نهائي للشكل الروائي، و لا يوجد تنميط نموذجي يمكن - انطلاقاً منه - مقايضة التجارب الروائية الأخرى، فالمنجز الروائي الغربي نفسه يشهد دينامية فكرية و إجرائية انجز عنها حركية في التنظير النقدي. و بذلك فلا وجود لقالب روائي أو نقدي ثابت يتشكّل الإبداع الأدبي وفقه. إذ أن كلّ تجربة أدبية لها أنساقها الحضارية و الإجتماعية.

3- الرواية العربية في حقل ثقافي غير روائي:

إذا كان حال السياق الثقافي الغربي الذي يراه الناقد روائياً بامتياز، فيه و إنطلاقاً من عكس خصائصه، نفهم نظيره العربي. فمادام هناك ارتباط بين الكتابة الروائية و شروطها الإجتماعية، و وحدة بين السياق و النصّ إذ " لكل نص سياقه و لكل سياق اقتراحات أدبية يتقدّم بها"⁽²⁵⁾.

وانطلاقاً من هذه الفرضية، يتحدّث "دراج" عن السياق العربي. لقد ظهرت الرواية العربية - في نظره - في شرط تاريخي لم يوفّر مقوماتها، معدّداً خصائصه: فمن الأحادية الفكرية إلى جوّ الكبت

الديني الذي يؤيد إنتشار خطابات معيّنة جوهرها البلاغة المتملّقة، المتوارثة و المغلقة إلى الإستبداد السياسي، غياب النسبي و التمسك بالماضي لا الحاضر والمستقبل ... كلّ ذلك آخر و أعاق ميلاد الرواية التي قوامها التعدّد و الديمقراطية. فزمن الولادة العربية هو زمن غياب شروط الكتابة الروائية.

وُلدت الرواية العربية النهضوية معوّقة- في نظر دراج- كيف لا، وهي ابنة فضاء معوّق بدوره ورأت النور في حقل ثقافي يرفض كل تلك المنظومات القيمية التي تبشّر بزمن حداثي حواري. لقد طالبت الإعاقاة كلّ المجالات التي وإن تعدّدت فإنها تظلّ وجوها لعملة واحدة تتركّس أحادية المرجع ومحدودية النظرو التفكير.

وُجدت هذه الرواية في حقل ثقافي رسّخ إعاقاة فكرية و لغوية، حين أعطى السيطرة للنص الديني، الذي أرسى ثقافة تقليدية و خطابات بلاغية تتفنّن، بل تتبارى في استحضار غريب الموحش اللفظي، الذي أصبح معيارا يتصعّك كلّ من يخرج عنه و يؤسّس للغة الشعب و الحياة الحرة العفوية .

لقد توقّف الزمن عند الماضي، زمن الكلّيات المغلقة و المنابع الصافية، و كُملت الأفواه، فلا تسمع سوى صوت اللاهوت " تعيّن النص الديني مرجعا شموليا للعالم، يحكم بلا حوار الأيديولوجيات النظرية و العملية في آن، و ينظر إلى المعارف و يقف فوقها، فاصلا بين المعارف النبيلة و المعارف الدنيئة، ولأن شكل الفكر هو شكل اللغة التي يتجلى فيها فقد احتضن النص الديني بلاغة لغوية خاصة به و اعتبر ما عداها هرطقات لغوية تعبّر عن العوام أو عن كتّاب مارقين يشاطرون العوام اهتماماتهم"⁽²⁶⁾.

هذا هو فضاء عصر النهضة الإنغلاقي الرؤيا و الذي يتنافى تماما مع المنظومة التي أوجدت الرواية و آمنت بها وسعت إلى ترسيخها كجنس يقتات على كل ما يُبسط على مائدة المجتمع التي ينبغي أن تتزيّن بكل الأصناف و كل الأنواع، لتلتهم أصناف المعارف " تأخذ بما قال به علم التاريخ و تهضم الوثيقة التاريخية، و تتكئ على معطيات علم النفس و تنعت ذاتها رواية نفسية. و تستند إلى معطيات علم الاجتماع و تعيد صياغتها و تدرج في سطورها الأطروحات الفلسفية و تعيد تركيبها، إضافة إلى الأسطورة و قصص الأديان ... غير أنها و هي تلتهم ما تلتقي به على

موائد المعارف الأخرى، تكشف عن ديمقراطية الزمن الذي صاغها وتُعلن عن إرتقاء المعرفة الإنسانية⁽²⁷⁾.

وهكذا لم تعثر الرواية العربية التأسيسية على زمنها المستقبلي المتعدد المعارف، ولا على قارئها ولا مدينتها فجاءت محاصرة قرينة الخطاب الإصلاحي-في نظر دراج-. فلم تعرف النصوص الروائية النهضوية الإستقلالية و الفردية و إنما كانت في جوهرها صدى للخطاب الفكري التنويري و رجعا لمقولاته عن الحرية و المساواة و التقدم الإجتماعي، ما جعلها رواية تبشيرية أخلاقية و رواية فكرية بامتياز. فقد كتب "فرح أنطوان" عمله "المدن الثلاث" لكنه لم يكن رواية بقدر ما أخذ منحى فلسفيا إجتماعيا في علائق المال و العلم و الدين أو ما يسمونه في أوروبا: "المسألة الإجتماعية". و قد كان في نعتة عمله "رواية على سبيل التساهل" ما يوحي بتوجهه.

أيضا نجد "فرنسيس فتح الله مراش" الذي لم يخرج عن مسعى سابقه حين كتب "غابة الحق"، لكنه كان وجها آخر للدعوات التنويرية حول الديمقراطية و المدنية و المساواة و مختلف الشروط الإجتماعية التي تبعث على السمو و الإرتقاء. ولعل قراءة العنوان "غابة الحق" الذي أرفقه صاحبه بعنوان ثانوي هو "كتاب سياسي إجتماعي فلسفي"، بتأمر مع ما جاء في الفصول التي تبدأ بحلم يبرز لنا هدف الكتاب "يبدأ الحلم في الصفحة الأولى و يزول و لا يصحو إلا في الصفحة الأخيرة و بين الصفحتين اللتين إنكمش فيهما، يقوم حديث سياسي إجتماعي. يتأمل مبادئ الثورة الفرنسية أو يُسائل ذاته، عقل قلق عن أسباب إرتقاء الممالك و انهدامها وعن الإنسان الواجب بناؤه من أجل مجتمع جديد، يهزم آثار التخلف و الهيمنة⁽²⁸⁾. كما يشير الناقد أيضا إلى رائعة "أحمد فارس الشدياق"، "الساق على الساق"، الذي كان كتابا عن الحرية: حرية المعتقد و الهزل، حرية الخيال و العقل، حرية الفضول و السخرية

لقد جمعت حكاية التقدم بين هؤلاء، و كانت كتاباتهم مجازا، و قناعا لطيفا لكتابة أخرى فكرانية نهضوية- في نظر الناقد- قيمية تزرخ تحت مطرقة الإستبداد و سندان التخلف. جاءت المتون الروائية التأسيسية بالنسبة لفصل دراج ذبلا للحظات الفكرية التنويرية و امتدادا له، فكلما الخطابين يراهنان على تفعيل الدولة المدنية و محاربة التراجع الإجتماعي و الحضاري.

وهكذا نظر "فيصل دراج" بدونية للإبداعات النهضوية إذ أبعد عنها، كلّ حديث عن الجماليات الفنية أو التيمية، بل إن أفكار الناقد تجعلنا ننفي صفة الروائية عن كثير من تلك الإبداعات إن لم نقل كلّها. فتلك المحاولات لم تكن كفؤا حتى تُعلن الرواية جنس العصر ولم تبشّر بالعصر الذي ينصّب الرواية ويحتضنها.

وينساق الناقد في كثير من آرائه وراء جاهزية النظريات الغربية، فسيرسل في تمثيلها، ويقرأ بها الرواية العربية. يراهن أثناء قراءته للسياق الثقافي العربي دائما على استحضر السياق الحضاري الغربي و يهجم في كلّ مرّة بمعايير وقوانين جعلته يتشرنق في دائرة التماثل و التناظر، فلا استطاعت الرواية العربية أن تتناظر مع الأوروبية و لا السياق الثقافي العربي مؤهل لتجذير شكلها و معانقة قيمها و تطلعاتها.

إن عدم وجود الرواية العربية- في نظر الناقد- على الصورة المكتملة، و تموقعها في هامشية إجتماعية و ثقافية إرتبط بعوامل عدّة متظافرة، تعود في الأساس إلى حمولات معرفية مرجعية مفارقة لأسئلة الواقع و همومه، و إلى إنتاج فكري يعيد إنتاج القديم و يهوى تقديسه. و قد كان لهذه الرؤية الماضية دور في زرع روائي طليعي معوّق، حمل معه جينات إعاقه تسرّبت إلى كلّ المواليد الروائية العربية اللاحقة و رافقتها في كل مراحلها.

تنتمي الرواية- في تصوّر دراج- إلى زمن الحداثة الإجتماعية، زمن التغيير و التحوّل والإبداع، زمن الذوات الحرة المستقلة التي تكتب بلغة الحياة و تنزاح بذلك عن زمن راكد لتري في المستقبل المفتوح مرجعا لها.

إن قوام الرواية يقتضي من زمنها مجتمعية علاقات الكتابة و القراءة معا، مجتمعية لا مراتب فيها تنقض الذات المستلبة والممتثلة، و تأنف من كتابة ضيقة و زخرفية. هذا موازاة دائما بالحقل الثقافي الأوروبي الذي اكتنز بعدد التصورات الفلسفية الجديدة التي حطمت محدودية العالم القديم و إنغلاقه و أكّدت على حوارية المعارف و احتفت بظروف و وعي أسهما في تطوّر الرواية و ثراء طرائقها الجمالية، فكانت مرآة للإرتقاء الفكري و المعرفي و اللغوي. و هنا- كما أشرنا آنفا- يظهر اتكاء الناقد على طروحات باختين و لوكاتش و غولدمان ... و استحضر دائم لأرائهم ومقولاتهم التي تكشف عن الإنزياح الكتابي، و عن معنى المتعدّد الذي يوافق زمن

الرواية، و يعيّن العلاقات النثرية مبتدأً لدراسة العلاقات الإجتماعية. وهذا كلّه يجعل من الكلمة الروائية كيانا حيا. كما لو كانت حياة الكلمة وتنوّع اللغة و صراع اللهجات داخل النص الأدبي هو علامة صحيّة على حياة واقعية، و إشارة إلى وجود تفاعل حي للقوى الإجتماعية، إذ الكلمة في تصوّر الروائي بعيدة عن الحيادية. إنها تؤمّن حوار البشر و تعارفهم و أيضا تصارعهم، و تشير في تحوّلها إلى تحولات في المجتمع والتاريخ. إنها بيت الوجود، حلبة صغيرة، حمالة رؤى و أيديولوجيات.

هكذا يتكوّن العمل الروائي داخل ذلك التحوّل الإجتماعي و التاريخي، الذي يهدم أحادية المراجع في ألوانها المختلفة لتكتمل روائيته و يبدو تميّزه، ناتجا أو أثرا للإنزياح عن كل مرجع لغوي و ثقافي وحيد.

بالمقابل في سياق مجتمعي ينماز بالأحادية و المصادرة لقيم الاختلاف و التنوع، فشل الحقل العربي في توفير الأرضية المعرفية الضرورية لنمو الرواية، التي ظلّت- في نظر الناقد- مولودا هامشيا. فقد رأت النور في حقل ثقافي تلقيني مسيطر، قوامه البلاغة المتوارثة و عموده النص الديني. فضاء كلّ نفي و طرد و تكفير و نكران لكل مقارنة جديدة تفتّش عن بدايات مستقلة تنظر إلى الحاضر و المستقبل، لا الماضي و الأصل و تبني مراكز ثقافية و لغوية عديدة " و في حقل ثقافي مضمونه التأويل النصّي المقدس، و شكله البلاغة المتوارثة المغلقة، لم يكن بإمكان الوعي اللغوي الغاليلي أن يعثر على مكان له، ذلك أن هذا الوعي لا وجود له من دون وجود تعددية معرفية مشخّصة و منظور للعالم يتضمن التعددية و يعيد إنتاجها. و منظور كهذا يستمد حركيته، أي اعترافه بالنسبي و استنكاره للمطلق، من مشروع يسعى إلى تحقيقه، يقوم في المستقبل و يرى فيه حاكما للأزمة الأخرى"⁽²⁹⁾.

إن المتعدّد الغائب و الكلي و المطلق و التراتبي و كلها عناوين للفضاء العربي، لا يمكن أن تكون نسغا حقيقيا يغذّي الرواية و يسهم في ازدهارها و سيورتها. إنكأّت الرواية الأوروبية في زمن صعودها على الحاضر و المستقبل الذي تحرّر من ماضيه و انفتحت على سياق منوّع متحرّر. و لم يجد الروائي العربي في ثقافته ما ينير الدرب للكتابة الروائية، لأنها تكون جزءا من عنوان أكبر هو الكتابة السردية التي باتت ضربا من المجون و الهرطقة الأدبية و اللغوية التي ينبغي أن

توضع في قاعدة الهرم وفي أسفل مراتب المعرفة، لأنها تحاول شقّ طريقها وصناعة جمهورها، بعيدا عن شكل الكتابة المسيطرة، المدثرة بالمقدس.

أما خارج هذه المرتبة الصّارمة التي تعلوها التآليف الدينية والعلوم اللغوية، وما يعزّز قولهما و يخدم أغراضها فيقبع الدّنيء و المنبوذ، و تتموضع الرواية مع الهامشي و المعزول، لتظلّ علامة حقل عربي، لم يعثر بعد على الزمن الحديث فبقي ضيقا معرفيا و معوقا ثقافيا " يلغي تصوّر النص-الأصل إمكانية القراءة الفاعلة مختصر القراءة التي هي ليست بقراءة إلى ثنائية التلقين و الإستظهار، حيث المعلم يلقّن الطالب نصا جاهزا، و الطالب يستظهر، بلا انحراف النص الذي استظهره المعلم أمامه، و في ثنائية التلقين و الإستظهار يعيد الطالب إنتاج الشيخ الذي يسبقه، مثلما يستعيد، و قد أصبح شيخا، إنتاج ذاته في شيخ لاحق. وفي هذا النسق المصاغ من تبادلية الإنتاج المتماثلة، يصبح الثبات مقدّسا و يغدو الثابت المقدّس علما للعلوم

„(30)

لقد استطاع الروائي الأوروبي أن يقطع مع الأنساق التقليدية، ليُمّتح من معين جديد مفعم بالعقلانية والنسبي والمتغير، في حين ظلّ الروائي العربي يسبح في مونولوجية معرفية، ويعاني حصارا ثقافيا، كشف عن نماذج روائية مبكرة من عصر النهضة، رآها "فيصل دراج" معتلة مشوهة، و تفتّق عن منجز سردي عربي حديث متعلّو مغترب.

إن هذه الخصوصية في السياق العربي، التي لم تستطع أن تؤمّن شروط الكتابة الروائية و لم تنجح في تحويلها إلى ظاهرة مجتمعية لا على صعيد الكتابة و لا على صعيد القراءة و تلقّي الجمهور العربي. ذلك أن عقم الحقل المعرفي و الثقافي نجح في إنتاج قارئ منوّالي إمتثالي، يطرب لسماع أساليب القرع البياني، و يهتزلتقاليد البلاغة القارة.

أما الأسئلة التي يطرحها الشكل الروائي الصاعد و العوالم الجديدة التي تفتحتها و المناطق المحرّمة التي ترتادها و الفئات المزدولة التي وجدت في هذا الجنس ناطقا باسمها و بيانا لعذاباتها، فإنه يعدّ نشازا أدبيا و دخولا في دائرة المحظور و الفجور الكتابي.

وحتى لو تقدّمت الرواية- كما يصرح الناقد- فقد تأخّر قارئها، ولو أنها نجحت في فرض نفسها ك لحظة حدائيه على صعيد الكتابة، فإنها تفشل في التحوّل إلى ظاهرة مجتمعية على صعيد القراءة و الإقبال عليها. و هذا اللاتوافق، يزيد وضعها إلتباسا و تأزّما و يطبع مسيرتها بالإضطراب و المأزقية. فهي تنتهي إلى زمن تقليدي أجهض أزمنة حدائيه وضيّع فرصا للإقلاع الحضاري كثيرة بسبب اعتصامها بحبل الأصل.

لقد حاول "فيصل دراج" محاكمة الرواية العربية عموما و النهضوية تحديدا، لا لجرم ارتكبه سوى وجود هذا الغرب الذي ينبغي أن تقاس على مثاله. و حتى لو أخذنا بتصوّرات الناقد و مقولاته و صياغاته التي في معظمها جزء من تراث الفكر الماركسي و تجلياته المختلفة و المتفاوتة في النقد الأدبي، إذ يقرأ الناقد علاقات الكتابة الإبداعية بالمرجع الخارجي و أثر الوعي الإجتماعي في تحديد المرجع الداخلي للكتابة و هذا أمر تقريبا مجمع عليه، فالأدب ظاهرة " من ظواهر الوعي الإجتماعي لدى الناس المرتبط بالظروف الإجتماعية و التاريخية و المتغير بتغيّرها"⁽³¹⁾.

لكن لا ينبغي أن تُؤخذ هذه الطروحات على إطلاقيتها. فوظيفة الأدب ليست عكس الواقع. وليست كفاءة المبدع و مقدرته تنبع دائما من حسن التعبير عمّا هو خارجي، و إلّا لإستوى الأديب المبدع و كاتب المقالات في أعمدة الجرائد اليومية أو لإستوى المبدع مع المصوّر الفوتوغرافي أو مناضل الحزب ... فوظيفة الكاتب تترقّع عن النقل المأروي و الحرفي ليسبح في فضاءات الحرية و الإبداع.

ونحن نورد هذه النقاط، ردا على شيء أساس انطلق منه الناقد، و هو ضرورة التلازم بين السياق الإجتماعي و البناء الفني الأدبي، ما جعله يربط بين الفضاء العربي المتخلّف، الذي يستلزم- في رأيه- إنتاجا أدبيا متخلّفا. و ذلك- في تصوّرنا- ليس أمرا ضروريا أو حتميا، فما أكثر الإبداعات الرائعة و حتى الخالدة التي أفرزتها ظروف حضارية متردّية. و ما أكثر الأعمال الفنية التي تجاوزت مرارة الواقع و قسوته إلى إشراقة المستقبل و مفاجآته.

لا شك أن عامل الحرية محقّز و مساعد للإنتاج و الإبداع الجيدين، لكن يمكن أن تكون حالات المعاناة و المناخات غير الديمقراطية دافعا أيضا لكتابات راقية و استثنائية و استشرافية. و ما

أكثر الكتابات التي واءمت بين شرط الإبداع و غياب الديمقراطية. ويمكن القول مع "عبد الرحمن منيف" أن "الرواية ليست شرطها الديمقراطية، إنما هدفها الديمقراطية، و هي تحاول أن تعتبر هذا الهدف هاجسها الأول تبحث عنه و تسعى إليه"⁽³²⁾. فكثيرة هي الإبداعات التي خرجت من رحم المعاناة واليأس، من قسوة النفي و الهزائم ... لكن لم تتوقّف عندها، بل تجاوزتها وصنعت من النقم الواقعية ومرارتها نعمة و جنّات إبداعية تحرّرت فيها وبها.

صحيح أن بلادنا العربية تعاني مشكلات عدّة، بدءا بالتخلّف و الإستبداد، الحروب سواء الطائفية أو الإحتلال الخارجي، التبعية وغيرها، وقد عمل كثير من المثقفين العرب ومفكرهم في ظروف حصار و رقابة و ضمن أوضاع شديدة الصعوبة، لكنهم قدّموا كتابات مهمة، فتحت الأعين على المآسي و عبّرت عن التطلّعات والأفكار الجمّعية و قدّمت رؤية مستقبلية و أحلاما للأيام القادمة .

خاتمة:

لقد راهن "فيصل دراج" في طرحه النقدي عن الرواية العربية، دائما على قراءة الشكل الروائي الغربي و سياقه الثقافي الذي انعتق من الجامد و الجاهر، و انخرط في أسئلة دنيوية، ما نتج عنه تاريخية في التجربة الأدبية و حركية داخل معاييرها النقدية و هكذا، إذا كان الناقد يفسّر نجاح الرواية الغربية و تألقها في مراحلها المختلفة بخصوصية السياق المجتمعي والحضاري الغربي الذي شهد فتحاً برجوازيًا عظيمًا و إحتفاءً بالوعي اللغوي الغالي، و احتضن تعدّدية في اللغات و الأصوات الإجتماعية، و إنقاد لحوارية معرفية... فإن إعاقة البدايات الروائية العربية و إخفاق الرواية العربية عموما في أطوارها اللاحقة إلى عصرنا الحالي راجع إلى غياب هذه التقاليد، و بهذا فإن الناقد رأى في المفاهيم و النظريات الغربية آراء جاهزة يمكن أو يجب تعميمها و تطبيقها، وهذا ما جنى على الإبداع العربي وروايته خاصة، و حال دون التمتع بروائيتها و خصوصياتها.

الهوامش:

1- فيصل دراج: الحداثة و جمالية المفرد، الكرمل، عدد 69، أكتوبر 2001. ص 46.

- ² - المرجع نفسه..ص 44.
- ³ - فيصل دراج: نظرية الرواية و الرواية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط2، 2002. ص 160.
- ⁴ - المصدر نفسه. ص 158.
- ⁵ - المصدر نفسه. ص 159.
- ⁶ - مصطفى عمر التير: اتجاهات التحضر في المجتمع العربي، أكاديمية الدراسات العليا، طرابلس، ليبيا، ط1، 2005 ص 99.
- ⁷ - المرجع نفسه. ص 97.
- ⁸ - أحمد شكري الصبيحي: مستقبل المجتمع المدني في الوطن العربي، مركز الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2000. ص 20.
- ⁹ - محمد عطا: رأي في أدبنا المعاصر، مكتبة نهضة مصر، دط، دت، ص 09.
- ¹⁰ - مصطفى عمر التير: اتجاهات التحضر في المجتمع العربي. ص 09.
- ¹¹ - أحمد شكر الصبيحي: مستقبل المجتمع المدني في الوطن العربي. ص 61.
- ¹² - مصطفى عمر التير: اتجاهات التحضر في المجتمع العربي. ص 99.
- ¹³ - فيصل دراج: نظرية الرواية و الرواية العربية. ص 159.
- ¹⁴ - هورست ريديكر: الإنعكاس و الفعل ديالكنتيك الواقعية في الإبداع الفني، تعريب فؤاد مرعي، دار الجماهير، دمشق، سوريا، 1977. ص 17.
- ¹⁵ - جان برنيس: المخلية، ترجمة: خليل الجر، المنشورات العربية، بيروت، لبنان، ط1، 1984. ص 90.
- ¹⁶ - فيصل دراج: حوار مع المفكر و الناقد فيصل دراج، أجرى الحوار أبي حسن، المعرفة، عدد 497، فبراير 2005. ص 266.
- ¹⁷ - فيصل دراج: الرواية و تأويل التاريخ، نظرية الرواية و الرواية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2004. ص 39.
- ¹⁸ - المصدر نفسه. ص 12.
- ¹⁹ - فيصل دراج: الذاكرة القومية في الرواية العربية من زمن النهضة إلى زمن السقوط، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2008. ص 25.
- ²⁰ - فيصل دراج: الرواية و تأويل التاريخ، نظرية الرواية و الرواية العربية. ص 39.
- ²¹ - فيصل دراج: نظرية الرواية و الرواية العربية. ص 145.
- ²² - المصدر نفسه. ص 145.
- ²³ - فيصل دراج: نظرية الرواية و الرواية العربية. ص 147.

- ²⁴ - أحمد الجرطي: أسئلة نشأة السردية العربية الحديثة بين سوسولوجيا الأدب و خطاب ما بعد الكولونيالية، فضاءات للنشر عمان، الأردن، ط1، 2016. ص 161.
- ²⁵ - فيصل دراج: الذاكرة القومية في الرواية العربية من زمن النهضة إلى زمن السقوط. ص 11.
- ²⁶ - فيصل دراج: نظرية الرواية و الرواية العربية. ص 148.
- ²⁷ - المصدر نفسه. ص 146.
- ²⁸ - المصدر نفسه. ص 152.
- ²⁹ - المصدر نفسه. ص 148.
- ³⁰ - فيصل دراج: الشيخ التقليدي و المتقف الحديث، الكرمل، عدد 68، يوليو 2001. ص 311.
- ³¹ - محمد علي البدوي: علم إجتماع الأدب: النظرية و المنهج و الموضوع، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2009. ص 14.
- ³² - عبد الرحمن منيف: الكاتب و المنفى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء ط1 2003. ص 274.

معلومات خاصة بالباحث

الاسم واللقب : زينب رحايمية

الرتبة : أستاذ مساعد قسم أ.

العنوان البريدي: بلدية تيفاش ولاية سوق أهراس 41038

البريد الإلكتروني z.rehaimia@univ-soukahras.dz

الهاتف: 0795168925

النشاطات العلمية:

-الملتقيات والأيام الدراسية :

1- المدن الجزائرية من خلال الكتابات الفرنسية ، مداخله قدمت في الملتقى الوطني : الجزائر في كتابات الغربيين منظورات ومضمرات ، بالمركز الجامعي محمد الشريف مساعدية - سوق أهراس يومي : 28 و 29 نوفمبر 2011 .

2- الجزائر والقضية الفلسطينية بين الموقف السياسي والدعم العسكري ، مداخله قدمت في الملتقى الوطني : الممارسات الإسرائيلية في فلسطين وموقف القانون الدولي بالمركز الجامعي سوق أهراس يومي 06 و 07 ديسمبر 2011 .

3- جدلية الرؤيا والبناء الفني في رواية "الحب في المنفى" لبهاء طاهر ، مداخله قدمت في اليومين الدراسيين : الأدب العام والمقارن والمناهج النقدية بجامعة باجي مختار-عناية يومي 22 و 23 جوان 2013 .

-المقالات :

1- المثقف العربي و إشكاليات العصر قراءة في رؤيا العالم رواية الحب في المنفى لبهاء طاهر أنموذجا-مجلة منتدى الأستاذ،المدرسة العليا للأساتذة، العدد20، أوت2017.